أناشيد صوفية

# جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٧٢ —

إننى أبرأ من الاستسلام ، وأنا أستشعر الحرية تحوطني فى لذة وطرب

وأنت — دائماً — تفرغ فى كأسى من رحيقك العطر ذى الألوان رشفةً سائغة ، فتفعم هذا الإناء الأرضى

إن دنياى ستشعل من نورك مصابيحها العديدة ، وتضعها أمام محراب معبدك

لا ، لن أغلق أبواب حواسى ، فإن لذاذات البصر والسمع واللمس تحمل فى ثناياها نشوة منك

نعم ، إن أوهامى ستتحرّق فى شعلة من مرح ، وإن رغباتى ستتفتح عن ثمرة من حب

— ٧٣ —

لقـد خبا ضوء النهار وانتشرت عتمة الغسق على الأرض ، وآن لى أن أنطلق إلى الغدير لأملأ جرّتى

ونسماب الليل تشجيها موسيقا الموج الحزينة . آه ، إنها تناديننى لأندفع فى أضعاف الظلماء ، وما فى الطريق الموحش من عابر سبيل ، والريح تزف زفيفاً ، وصوت خرير الموج يتصاعد هائجاً من جوف النهر

لست أدرى إذا كنت سأعود إلى الدار ؛ ولست أدرى من عساى أن ألقى على الطريق . إن هناك فى القارب الذى يرسو فى الناحية الضحلة من النهر ، رجلاً مجهولاً يعزف على قيثاره

— ٧٤ —

إن آلاءك تفيض علينا فتسد مآربنا ، ثم ترتد إليك وما نقصت شيئاً

فالنهر يجد كل يوم عملاً ، وهو يندفع إلى الغاية بين الحقول والقرى ، ولـكن مجراه المستمر يهفو نحو قدميك ليغسلهما

والزهر يتأرّج فيملأ الهواء عطراً شذيًّا ، غير أن غايته أن يقدم نفسه إليك

إن الاندفاع فى عبادتك لن يجدب العالم

ومن نفثات الشعراء خذ ما يحلو لهم ، ولـكنك ما تزال غرضهم الأسمى الذى إليه يشيرون

— ٧٥ —

وعلى مر الأيام ، أفتسمح لى — يا إلـه الحياة — أن أقف بإزائك وجهاً لوجه ؟ وفى خضوعى وذلتى ، أأقف بإزائك — يا إلـه الـكون — وجهاً لوجه ؟

وتحت سمائك العظيمة ، فى وحدتى وسكونى وذلة قلبى ، أأقف بإزائك وجهاً لوجه ؟

وفى دنياك الصاخبة وهى تضطرب بالـكد والتناحر ، وبين الزمر المتدافعة ، أأقف بإزائك وجهاً لوجه ؟

وحين ينتهى عملى فى هذه الدنيا أأقف — يا ملك الملوك — وحيداً صامتاً بإزائك وجهاً لوجه ؟

— ٧٦ —

لقد عرفتك إلهاً لى ثم تنحيت جانباً ... فأنا لم أعرفك أخاً فأندفع إليك ، ولا أباً فأنحنى أمام قدميك ، ولا صديقاً فأشد على يديك .

ولم أقف حيث أراك تهبط فتهدى نفسك إلىّ ، فأضمك إلى صدرى وأتخذك رفيقاً

إنك أخ بين إخوتى غير أنى لا أعيرهم انتباهى ، فأنا لا أقسم بينكم حبى ، ولـكنى أخصك بجميع قلبى

فى حالَىْ نعيمى وبؤسى لا أسكن إلى رجل بل أعتمد عليك أنت . إننى لأزوى وفى نفسى أن أنزع عنى ثوب الحيـاة لأننى لا أريد أن أغتمر فى خضمها

— ٧٧ —

فى بدء الـكون ، والـكواكب تسطع — أول ما سطعت —

فى تألق ، إجتمع الآلهة فى السماء ، وانطلقوا يغنّون « أوه ، ما أجمل صورة الكمال ! ما ألذ الطرب المحض ! »

وعلى حين فجأة دوّى صوت من بينهم « إنه ليخيل إلىّ أن هناك نقصاً . إن إحدى حلقات الضوء مفقودة ؛ إن كوكباً قد ضاع ! »

فانقطع وتر القيثارة الذهبى ، وأمسكوا جميعاً عن الغناء ؛ ثم صاحوا فى فزع « نعم ، إن الكوكب المفقود أشد الكواكب لمعاناً ، لقد كان زينة السماء ! »

وراحوا — منذ ذلك الحين — يفتشون عنه فى دأب ونشاط ، وغمرتهم الصيحة ، ففقدت الدنيا — فى ثناياها — بهجتها الوحيدة !

وفى هدأة الليل وسكونه تبادلت الكواكب الابتسامات والهمسات « عبثاً تفتشون ! إن الكمال التام فوق كل شىء ! »

— ٧٨ —

ليست غاية جهدى أن ألقاك على الأرض ، فإذا أريد أن أستشعر — دائماً — فقد النظر إليك ... ولكن لا تمح ذكراك من قلبى لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

وحين أقضى أيامى بين الحشد فى سوق الحياة فتمتلىء يداى بالكسب ، استلبنى من نشوة الربح ؛ ولا تمح ذكراك من قلبى لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

وحين أجلس على جانب الطريق أستجم من أثر الأين والسُهر ، فأنشر فراشى على الثرى ؛ ألق فى روعى أن رحلتى ماتزال طويلة ؛ ولا تمح من قلبى ذكراك لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

وحين تتزين حجراتى وتتصاعد أنغام القيثار وترتفع رنات الضحك ، دعنى أشعر كأنى لم أدعك إلى دارى ... ولا تمح ذكراك من قلبى لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

— ٧٩ —

أنا كأنى نُثار سحابة خريف تضطرب عبثاً فى أرجاء السماء ؛ آه ، إن شمسى داعماً تتألق ! إن لمساتك لم تحولنى إلى بخار فأكون شعاعاً منك يحصى عدد الشهور والسنين التى تنفصل عنك

وإذا كانت تلك إرادتك ، وهذه هى غايتك ، فاجذب إليك حطامى المنقض ، واصبغه بالألوان وزينه بالذهب ؛ ثم ارسله بين هوج الرياح ليبدو فى فنون أخّاذة

وإذا كانت مشيئتك أن تنتهى من عملك والليل ساج ؛ فسأذوب وأتلاشى بين أضعاف الظلام ، أو فى بسمة الصباح اللامع ... فى الصفاء والنقاوة

— ٨٠ —

فى أوقات الفراغ آسى أنا على أيامى الضائعة ؛ ولكنها — يا إلهى — لم تضع ، فأنت قد بسطت يديك على كل ساعة منها

إنك تستقر فى أعماق كل شىء ، فأنت تنفث فى الحبة فتصبح نبتة ، وتنفخ فى الكِم فيتفتح عن زهرة ، وتنضج الزهرة فتحور ثمرة

لقد كنت أستشعر الجهد والضنى فاستلقيت على فراشى وفى خيالى أن كل عمل فى العالم قد وقف ؛ وعند الصباح انطلقت إلى حديقتى فألفيتها تموج بالزهر الغض

— ٨١ —

إن الزمان لا نهائى بين يديك ياسيدى ، وليس هنا من يستطيع أن يحصى عدد اللحظات

الليل والنهار يتعاقبان ، والدهر يتفتح ويذوى كأنه زهرة ؛ وأنت وحدك تعرف كيف تبقى ، والقرون يتلو بعضها بعضاً ، تدفع زهرة بريّة صغيرة إلى الكمال

لم يبق من وقت نضيعه فلنتدافع نحو الفرصة السانحة ، فنحن فقراء يؤذينا الكسل

وهكذا تصرم الزمن وأنا أحبو منه كل شاكٍ يعتق ، فأقفر محرابك من القرابين

وعند الغروب انطلقت أشتد نحو بابك خيفة أن يغلق على ، غير أنى وجدت أنه ما يزال فى الوقت بقية

فاضل محمود حبيب